أوهام كالجبال

الأوهام السبعة:

1. الفكر البراجماتي النفعي.
2. تميع الهوية.
3. الشرعية الدولية.
4. الديمقراطية.
5. السلمية.
6. النخب المزيفة.
7. المخلص المنتظر.



13 جمادى الآخرة 1435 هـ ـ 13 /04/ 2014 م

www.ommaty1401.blogspot.com

في مصر 35 جنرالاً عسكرياً يحكمون مصر، مع حوالي 1200 ضباط أمن دولة، وقريب منهم من باقي الأجهزة الأمنية الأخرى، مع مجموعة من العائلات لا يتجاوز تعدادهم 5 آلاف فرد، والباقي أدوات تخدم عليهم، هؤلاء يتحكمون في مصير حوالي 94 مليون مصري من الميلاد إلى الوفاة؛ من طبيعة الكوميديا الذين يضحكون عليها، إلى مناهج روضة أطفال حتى أعلى الشهادات الجامعية! يحكمون كل تفاصيل حياتهم!

وفقاً لسنن الله في الأنفس والمجتمعات، ووفقاً لعلوم الاجتماع، والتاريخ، والسياسة.. فإن من يظن أن المشكلة في هؤلاء، فهو جاهل بسنن الله سبحانه وتعالى، ومن يظن أن الحل هو مجرد زوال هؤلاء فهو جاهل بطبيعة حركة التغيير، وقيام الدول والمجتمعات.

عندما يتحكم 5 آلاف فرد في 94 مليون، فإن المشكلة في "أفكار" القوم وعقيدتهم.. فسنة التغيير ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : 11] ما بأنفسهم من أفكار وقيم وتصورات وموازين.. عندما تتغير تلك "الأفكار" - التي تُنشأ الشعور ومن ثم السلوك - يتغير - كما هي طبيعة السنن الإلهية - ما بالقوم خيراً وشراً طبقاً لصحة الأفكار من ناحية السنن، ومن ناحية الرسالة.

هناك أوهام كالجبال في نفوس هؤلاء القوم تحولهم إلى غثاء كغثاء السيل، أوهام تجعل قلة من الأفراد تمتطي الملايين، وتسوقهم إلى الذبح بلا مقاومة. أوهام هي الآصار والأغلال تكبلهم، وتُقود حركتهم، وتلغي فاعليتهم، ووجودهم، وأثرهم.. فيتحولون إلى أكوام بشرية، وقطع آدمية صغيرة، بلا قيمة !!

وعندما تحدث "مقاومة" دون تحطيم هذه الأوهام أولاً، فإنها تبذل التضحيات بلا مقابل، وتستنزف الجهود، والطاقات. إنها أوهام تسجن العقول وتنحرف بالسلوك.

ومن هذه الأوهام:

(1) الفكر البراجماتي النفعي

هذا الفكر يحسب حساب "المصلحة المادية الآنية" ويتحرك وفقها، ولا يستطيع أن يتجاوز حدود رؤيته ! يظن أصحابه أنهم أصحاب الحنكة السياسية، والنظرة الواقعية ! وهذه الفكرة قطعت الطريق على الدين والدنيا ! ذلك لأن البراجماتية كان لها جناح إسلامي !!

لا يستطيع من يتبنى "الفكر البراجماتي" بجناح إسلامي أن يقيم الدين أو ينال الدنيا. من يريد أن يتبنى الفكر البراجماتي يجب أن يبتعد في "برجماتيته" عن أي حديث عن الإسلام.. فيكون براجماتياً حتى النخاع أو إسلامياً حتى النخاع.. لأن الإسلام "كرسالة" والبرجماتية "كأيديولوجيا" لا يلتقيان أبداً بل ومتضادان.

ولقد أوضحت "سورة عبس" معنى "الإسلام كرسالة" والتي نزلت تعاتب النبي ﷺ لأنه تصدى لعلية القوم من قريش، وتولى عن "الأعمى" فقال سبحانه: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس : 11] رسالة ربانية عظيمة تغرس قيمها ومعانيها وتأتي أكلها بهذا التجرد والموضوعية والمساواة.

إن أمامنا ثلاثة اختيارات:

- **برجماتية خالصة**: تلعب في ساحة الدنيا المتاحة لها، ولا توظف الدين لخدمة براجماتيتها.

- **دعوية خالصة**: لا تطمح لشيء من الدنيا سوى بلاغ الرسالة والدعوة إليها بتجرد، وتنأى بنفسها عن مواطن الشبهات، وعتبات الحُكام.

- **إسلامية خالصة**: تريد إقامة الدين، وتحكيم الشريعة، وإعلاء كلمة الله، وتوحيد الأمة، وتستخدم السياسة والمال والأنفس، من أجل الإسلام ولا شيء غيره.

السياسية البرجماتية - التي تستخدم الإسلام - أدت إلى كوارث أكلت جهود عشرات السنين وآلاف التضحيات. ووقعت في حديث النبي ﷺ : "**وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**" [مسند الشهاب/ 473]

يدفع الفكر البراجماتي أصحابه إلى تبني بعض المواقف البراجماتية بلا مبادئ حقيقية أو قيم راسخة، فتتملق - مثلاً - العلماني فلا عنها يرضى العلماني، وتخسر المخلصين من أبناء التيار الإسلامي.

وما أوضح الطريق وأسهله عندما يحضر الزهد والفقه، والإخلاص والصواب.. إنه الإسلامية الخالصة المتجرة من كل منفعة والتي تُوظف كل شيء من أجل "رسالة الإسلام" وحده لا شريك له من أنداد وأشخاص وأحزاب وجماعات.

لذا فإن استبدال (وهم) الفكر البراجماتي، بـ (حقيقة) الفكر الإسلامي، لهو تحرر من الآصار والأغلال نكسب به خطوة أولية على الطريق.

* * *

(2) تميع الهوية

يظن أصحاب هذا (الوهم) أنهم قادرون على العمل بهوية متميعة.. أو ربما لا يفهمون مدلول الهوية من الأساس، ودورها، وعملها. ببساطة ودون عمق أي مقاومة أو صراع لا يحسم مسألة الهوية من البداية فهو صراع عبثي لن يفضي إلى شيء، وإن أي أحد يقطع علينا طريق "حسم مسألة الهوية" فهو على الحقيقة عدو، وإن كان لا يقصد ذلك.

لأن الهوية هي قاعدة الانطلاق، ويجب أن تحسم من أول لحظة بلا أدنى تردد أو تذبذب أو توان، هذه قاعدة بين الهويات عموماً، والهوية الإسلامية خصوصاً.. في بلادنا جاءت الهوية العلمانية على فوهة بنادق الاستعمار لتحل محل الهوية الإسلامية من مئات السنين، ومن مئات السنين نخوض صراعات وثورات وانقلابات وحركات وجماعات، ولا نحسم مسألة الهوية فتضيع الجهود هباءً منثوراً، ذلك لأننا لم نحسم بعد لحساب من نعمل؟ ولحساب من نثور أو نقاوم أو نجاهد أو نغير؟! وأي طريق سنسلك ؟

إن أخطر الصراعات وأعنفها هو صراع الهويات، وهي أول معركة نخوضها إذا انتصرنا فيها، فكل ما بعد ذلك يسير، أما إن فشلنا - لا قد الله - فلن نكسب شيء بعدها !

إن الصراع بين الهوية الإسلامية والهوية العلمانية صراع وجودي وصفري وعنيف.. ذلك أن الإسلام يريد أن يحكم، والعلمانية تريد أن تقوض الإسلام وتحاصره في شعائر وطقوس وتحكم هي.. الإسلام والعلمانية لا يمكنهما أن يجتمعان أبداً، كل منهما يعطل عمل الآخر، ولا يسمح له بالوجود! ولا أرى جرماً أكثر من أولئك الذين يريدون التعايش في مساحة مشتركة بين الإسلام

والعلمانية.. أولئك الذين يضيعون على الناس الدين والدنيا، فلا الدين أقاموا، ولا إلى الشرع تحاكموا، ولا الدينا نالوا.. لأن التنازع بين الهويات قائم ودائم.

إن أول خطوة على الطريق حسم الصراع بكل استعلاء واعتزاز وإيمان لصالح الهوية الإسلامية الخالصة الربانية التامة التي تُرضي سيد واحد هو الله سبحانه الذي ارتضى لنا هذا الدين، والذي هو ولينا من دون الناس.. نستعلنها ولا نشرك بالله شيئاً سواء في هوية أخرى أو نشرك به في أن نخاف من غيره، أو نشرك به ونحن نحسب حسابات أرضية بشرية آنية، تشوبها المصلحة والمنفعة والعصبية الجاهلية.

أما تميع الهويات فهو التذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء..

وإن التحرر من وهم (تميع الهويات) إلى (حقيقة) الهوية الإسلامية النقية الخالصة، لهو خطوة أولية على طريق التمكين.

* * *

(3) الشرعية الدولية

رغم أن الحرب على الإسلام.. حرب على العقيدة، وسنة التدافع بين الحق والباطل، وصراع حضاري منذ أن جاء الإسلام إلى اليوم وإلى قيام الساعة، والإسلام من أول يوم أعد المسلم لهذه الحرب وهذا التدافع وهذا الصراع، ووجهه الوجهة الصحيحة الدقيقة في العقيدة والشعور والسلوك، وإعداد القوة.. ولم يترك له شيء يجهله عن هذا الصراع.

الحرب اليوم على أشداها، ورغم أن الحرب على الإسلام، هناك "فئات" جاهلة لا تريد الاعتراف بذلك.. تسمي الصراع "سياسي أو استحقاق ديمقراطي" فإن حدث لها مكروه.. استدعت "الإسلام" لتمتطيه وتستخدمه للحشد والتعبئة، ثم تتركه بعد أن يتم "مهمته". وتطالب دوماً بالشرعية المحلية أو الدولية.. الشرعية المحلية تمثل في "دستور" والشرعية الدولية تمثل في الأسرة الدولية ونظرة الغرب إلينا.

وإن المستمسك بهما ممسك بأكبر وهم في التاريخ المعاصر.. إن الدساتير في بلادنا العربية لا تساوي قيمة الحبر الذي كُتبت به، وإن الواقع لهو مجرد قوانين جائرة يضعها الأقوياء ليحكموا بها الضعفاء من خلال أفسد منظومة للقضاء !! فكيف لنا أن نستمسك بها وهي لا تساوي شيئاً في نظر مَن كتبها، ولا في نظر الناس كذلك.. فكم من الدساتير التي تحدث عن الحقوق والعدالة والمساواة ولا يجد الناس شيئاً سوى الظلم والفساد والإهانة.

وأما الشرعية الدولية: والتي تتمثل في نظرة الغرب إلينا، فإن القرآن أخبرنا أن الغرب يتخذنا عدواً، ونحن نذوق ويلاته في كل آن ويخطط وينفذ ليحتلنا، ويسرق ثرواتنا، ويمنعنا من العودة إلى الإسلام، وإلى الشهود الحضاري..

إننا لا نريد أن نستعدي كل العالمين.. كلا بل إننا نحمل رسالة السلام، والرحمة لكل البشرية، وقادة الغرب يعلمون ذلك، ويعلمون أن نهوضنا يهدد سيطرتهم على العالم، وإن أي خطوة في هذا الاتجاه سواء في اتجاه السيادة أو إقامة الدين فسيواجهونها بالحرب، الغرب يريد العالم كله، والعالم الإسلامي خصوصاً تحت إمرته وقيادته ومؤمن بقيمه وفلسفته.. ونحن ببساطة انطلاقاً من ديننا ورسالتنا وكرامتنا وإنسانيتنا نرفض ذلك، ونستعلن هذا الرفض.. لا نصطدم بكل أحد ونحن في فترة الإحياء والتكوين، ولا نفرط في الرسالة، ولا نستجدي ونستذل لأحد، بل نستعلن قيمنا وحقوقنا.. الحقوق تنتزع بالإيمان بها، وبالإصرار عليها، وبالتضحية في سبيلها، أما الشرعية الدولية فهي تهذب انفعالاتك وغضبك لتلعب في إطار الدائرة التي تسمح به الأسرة الدولية التي هي في حقيقتها - كما شهد بذلك المنصفين منهم - عصابة دموية إجرامية تسرق ثروات الشعوب، وتستبيح في طريقها كل شيء ! فكيف عندما تكون طبيعة الصراع والتدافع على هذه الصورة أن نهرع إليهم نستجديهم، ونتحاكم إليهم، ونعتبر نظرتهم إلينا.. هذا وهم كبير.

إن التحرر من (وهم) الشرعية الدولية، واستبداله بحقيقة (الإسلام) لهو خطوة أولية على طريق التمكين.

* * *

(4) الديمقراطية

الديمقراطية قيمة عظيمة عند الغربيين استطاعوا بها بعد أن حسموا هويتهم لصالح العلمانية والمادية والقومية.. استطاعوا من خلالها أن يمنعوا ظلم الملوك.. وأن تكون هناك حالة من التوازن بين السلطة الحاكمة والشعوب، فتتقي السلطات غضبة شعوبهم. الديمقراطية قيمة يتمسك بها الغرب، ويعتبرها وسيلة ناجعة وأفضل صورة سياسية لتداول السلطات، وإن كانت مشوبة بانتقادات هائلة نحو سيطرة الإعلام على العقول، وتحكم رأس المال في المرشحين.. إلخ. لكنها تظل قيمة سياسية عظيمة يفخر بها الغرب، وهي مرتبطة بحضارتهم وتاريخهم، ولا تعمل إلا في إطار من الهوية المحددة المحسومة، وهي مصممة لتعمل في إطار الهوية العلمانية.

يستدعي البأساء ممن يدعون العلم والثقافة هذه الديمقراطية، ينادون بها ! بلا اعتبار لرسالتنا وحضارتنا، وبلا اعتبار لهويتنا المتميعة الضائعة، ودونما اعتبار لجذورها وروحها الغربية التي جاءت منها.. فتأتي إلينا فكرة ميتة مبتورة الجذور، والتاريخ، ولا تنفع لنا، ولن تنفع.

الشورى: نظام إسلامي للحكم.. حكم به النبي ﷺ وحكم بها الخلفاء الراشدون من بعده، تقوم على أخذ شورى أهل الفقه والعلم، وشورى أهل التخصص، وشورى عامة الأمة، ذات هوية إسلامية خالصة، وقيمة حضارية راشدة لرسالتنا.. وتقدم صورة لمنع ظلم الملوك والحكام أحكم بكثير من الديمقراطية.. بل إن التوحيد كله في صورته الشاملة مانع لكل مستبد وطاغوت، وتأتي الشورى لتكون قيمة متجددة الوسائل حسب المستوى الحضاري الذي تعيشه الأمة.

إن الغرب لا يحمل قيم الديمقراطية ليبشر بها البشرية، بل يعتبرها - إن كانت نافعة - قوة يجب الاحتفاظ بها، أو نموذج راشد في الحكم له وحده، ولا يعنيه أن يبشر بها أو يحملها لمن هو دونهم.. بل إنهم يدعمون المستبدين والقتلة والطغاة.. طالما يحققون مصالح الغرب. وما الديمقراطية خارجهم إلا أداة للاستهلاك الإعلامي وخداع الشعوب التي تبحث عن الخلاص. وهكذا حال الغرب مع كل قوة سواء علمية أو فكرية أو سياسية أو اقتصادية أو عسكرية.. يريد الاستحواذ والتحكم والسيطرة والاحتلال لكل شيء، ومنع كل من هو دونهم عن كل قوة.

وليس أحمق ممن ينادي الغرب، ويبكيه على الديمقراطية، ويسأله أن يحقق له الديمقراطية. أو يرفع رأسه للغرب كالتلميذ يقول له: أحققت الديمقراطية أستاذي ؟!!

أما الإسلام فهو على النقيض من فكر وفلسفة الغرب، ذلك أن هناك تناقض في مسائل النشأة والمصير، والتصور نحو الله والكون والإنسان والحياة.. الإسلام يحمل رسالة الحق والعدل الرباني لكل الناس، ويحمل الخير إليهم بلا مقابل سوى رضى الله، وتكريم الإنسان المكرم من خالقه، فهي لا تمنع نموذجها الراشدي في الحكم، بل تبذل الغالي والنفيس ليتحقق للناس الحق والعدل دون البحث عن جزاء مادي أو معنوي في تلك السويعات المعدودة هي كل الحياة الدنيا، ولا يمنع علماً، ولا خيراً عن أحد، بل يبذله ويحمله لكل العالمين.. ذلك لأن الإيمان باليوم الآخر، عامل محوري ورئيسي في التصور الإسلامي يُنشأ في القلب والعقل شعور لا يعرفه الفكر الغربي.

إن التحرر من (وهم) الديمقراطية، واستبداله (بحقيقة) الشورى لهو خطوة رئيسة على طريق التمكين.

* * *

(5) السلمية

السلمية قيمة عظيمة في مقابل "العنف" ذلك أن الغرب بعدما انتهى من حروب التحرر والهوية، واستقر نظامه السياسي، واعتبره نظاماً رشيداً للحكم.. اعتقد أن "السلمية" هي وسيلة التغيير في حال حدوث أخطاء أو مشكلات في الحكم، أو عدم تحقق تطلعات شعوبهم.. جاءت السلمية لتحافظ على هويتهم وعلى مؤسساتهم، وتستخدم آليات وأدوات السلمية للتغيير دون المساس بالهوية أو بمؤسسات الدولة ومقدراتها ومواردها التي هي في الأصل ملك للشعب وليس للحكام.

واعتبرت المدارس الغربية "العنف" خلل نفسي، واضطراب في الشخصية، ويصنف هكذا ضمن علوم النفس. فيرجعون الشخص العنيف إلى أصول تربوية فاسدة، أو اجتماعية قاسية.. انحرفت بشخصيته حتى أصبح شخصاً عنيفاً، مندفعاً، أهوجاً، لا يدري ماذا يريد بعد العنف، والتدمير.. بل هناك مدراس اعتبرت أن هناك من يمارس العنف، لأجل العنف ! دون غاية من وراءه. وفوق أنه خلل نفسي، واضطراب فهو صورة غير حضارية في التغيير، والإصلاح، والتعبير عن الحقوق. وطالما هناك اتفاق على الهوية، وعلى شكل الحضارة الإنسانية، فإن كل الخلافات يمكن أنْ تُحل بالسلم لا العنف. وجاءت الأحزاب السياسية، والاضرابات العمالية، والاضرابات العامة، والتظاهرات، والاعتصامات لتكون وسائل سلمية للتغيير، ولا ضرورة للعنف على الإطلاق.. فإن العنف في هذه الحالة يبطل قيمة الحق في التغيير، وينتقل بصاحبه من سيء إلى أسوأ.

لذا جاء الشعار الغربي: "نؤمن بالسلمية وأدواتها، وننبذ العنف وأدواته".

انتقل إلينا هذا المفهوم "السلمية" مثلما انتقلت إلينا "الديمقراطية" دون فهم لحقيقة مدلولات هذه المفاهيم، ودون فهم طبيعة البيئة التي نشأت فيها، وشكل النظم السياسية والاجتماعية، والتصور الاعتقادي عن الوجود الذي يشكل فلسفة كل هذه التصورات والمفاهيم والنظم.. طرف منا لا يفهم حقيقة هذه المدلولات، وطرف يريد تقليد الغرب انطلاقاً من الهزيمة النفسية والحضارية تقليداً أعمى، وطرف يريد تملق الغرب، وطلب رضاه.

ويبقى السؤال: ماذا نريد ؟

هل نريد تغييراً داخل إطار وهوية الدولة القائمة، والإبقاء على كل مؤسساتها كما هي؟

إذا كانت الإجابة: "نعم" فإن السلمية - بمفهومها الغربي - هي أنجع وسيلة، وأفضلها.. مع التأكيد على أن أقصى ما يمكن أن تحققه السلمية من تغيير هو: تغيير أفراد الحكومات أو الحكومات أو رأس الحكم.. مع بقاء هوية الدولة، ونظمها ومؤسساتها كما هي.

أم نريد تغيير هوية الدولة، والقضاء على مؤسساتها لأنها فسدت فساداً لا يُرجى معه صلاح، وإعادة بناءها وفق الهوية الجديدة؟

نأخذ الإجابة من تاريخ الحضارة الغربية: بالطبع لم تكن "السلمية" هي الإجابة.. بل ثورات دموية عنيفة ممتدة لعشرات السنوات سقط فيها آلاف الضحايا والقتلى، حتى قضت على النظام السياسي القائم بأفراده، وفلسفته، وأدواته، واستبدلت كل أولئك بهوية جديدة، وفلسفة جديدة، ونظم وفق الهوية الجديدة. لم يقل أي من مفكريهم، ومنظريهم، وقادتهم.. السلمية هي

الحل. بل كان هناك إفراط في استخدام العنف، واستسهال القتل ! ومراجعة سريعة لتاريخ الثورات الأوربية والأمريكية نجد ذلك واضحاً تماماً.

ما سبق من حديث كان عن صورة التغيير في المفهوم الغربي سواء أكان التغيير المنشود لا يستهدف هوية الدولة ومؤسساتها ووسيلته السلمية، أو كان التغيير المنشود يستهدف هوية الدولة ومؤسساتها ووسيلته الثورية العنيفة الدموية.

وأما التصور الإسلامي فله منظور مختلف عن "السلمية" و"العنف" بالمفهوم الغربي. إنه أولاً يحدد الوضع الحالي لهوية الدولة الحالية، وتاريخها، وعلاقتها، وواقعها الحضاري، والسياسي، والاقتصادي، والاجتماعي... إلخ، ثم يحدد على أساسه الطريق. فإذا كانت الشريعة غير حاكمة، والانتساب لغير الإسلام، وموالاة أعداء الإسلام، وسرقة ثروات المسلمين، وتمكين الأعداء من بلاد الإسلام، والواقع الاجتماعي منحل ومتفكك وغثائي، وانحسار الحضارة الإسلامية، والقعود عن حمل الرسالة، والأمة أصبحت "تبع" لكل من هب ودب.. فإن التغيير المنشود لا يستهدف مجرد تغيير الحكومات أو رأس الحكم، بل يستهدف هوية الدولة، ومؤسساتها، وفلسفتها القائمة، وتصوراتها، وقيمها، وموازينها.. واستبدال كل أولئك بالتصور الإسلامي.

كيف ذلك ؟

الإسلام يعالج أولاً ما بأنفس القوم، لتتحقق "سنة التغيير" يعالج ما حل بنفوسهم من تصورات ومفاهيم وقيم وموازين باطلة، ويستبدلها بالقيم الإسلامية، ثم يجعل رابطة الولاء والاجتماع.. ثم تأتي بعد ذلك آلية المواجهة:

في حالة الاستضعاف: وعدم وجود إمكانية للمواجهة، تأتي صورة المواجهة التي تستعلن رفض الظلم، وتقاطع أهل الباطل، وتعد القوة للمواجهة، في اللحظة المناسبة التي يكون فيها مظنة التمكين والانتصار، لا استنزاف الطاقات، وفشل الحركة.

في حالة القوة: ووجود قدرة على الحشد والتعبئة باسم الإسلام، وهناك أدوات يمكن بها المواجهة.. بلا مقارنة دقيقة في العتاد والعدة، فالعقيدة الإسلامية تجبر العجز والفارق في موازين القوة.. والتاريخ الإسلامي حافل بكثير من شواهد ذلك. وهذه المواجهة بالقوة تقوم باسم الله، ابتغاء مرضاة الله، تحقيقاً لمراد الله ليس لنا منها خط ونصيب، ولا ننتظر منها جزاء مادي أو معنوي. وتتسمى هذه المواجهة في التصور الإسلامي "الجهاد" وهو لا يواجه أو يقاتل اعتباطاً ولا غلاً ولا انتقاماً.. بل ينبذ إلى من يواجه على سواء، ويبين حقيقة دعوته، ورسالته، وحركته، وتجرده، وموضوعيته.. ثم يواجه بكل حسم وقوة ويقين في معيه الله ونصره.

إنه يسمي ذلك جهاداً ويجعله ذروة سنام الإسلام، ويجعل مواجهة النفس وأمراضها جهاداً، وإصلاح المتجمع وتنظميه وتصحيح موازينه وقيمه جهاداً، ويسمي الموجهة بالقوة جهاداً.

فالمواجهة في حالة الاستضعاف، والمواجهة في حالة إعداد القوة والقدرة عليها.. كلاهما جهاداً، كلاهما عملاً ينبثق عن عقيدة ترد الأمر كله لله.. ابتغاء مرضاة الله.. فأين هذا التصور ممن يدعي الحركة باسم الإسلام ثم يقول بـ "السلمية المطلقة" ؟!

إن من يبيع الوهم للناس باسم "السلمية المطلقة" لهو شريك بالأصالة في كل قطرة دم تسيل، وعرض يُنتهك، ومال يُغتصب، وأرواح تُزهق.

إن التحرر من (وهم) السلمية، واستبداله (بحقيقة) الجهاد لهو خطوة رئيسة على طريق التمكين.

* * *

(6) النخب المزيفة

لكل مجتمع له شهود حضاري نخبة تعبر عن هوية المجتمع، وخارجه من قيمه وعقيدته.. تأخذ بناصية المجتمع نحو الرقي، والتقدم، والتجدد. هذه النخب الحقيقية تعتبر رأس مال المجتمع وثروته العظيمة.. وهذه النخب تحمل صفات خاصة: (الأعلى ذكاء - الأكثر علماً وتحصيلاً - أصحاب قدرات ذهنية وتحصيلية خاصة - الأكثر ديناميكية وحركة، وتعبيراً عن هوية المجتمع - وهذا النخب تحمل مجموعة من التخصصات الدقيقة في علوم الاجتماع والسياسة وصناعة الرأي وعلوم النفس والواقع والقوة... إلخ). وهذه النخبة هي التي توجه المجتمع، وتكون هي "عقل" الدولة.. يلجأ إليها الساسة ليأخذوا منها التوجيهات والمعلومات التي تساعد الساسة في اتخاذ القرار. وأي خلل في العلاقة بين "عقل" الدولة، وبين "متخذي القرار" يهدد صحة التوجهات والقرارات، بل ويعرض الدولة كلها للفشل.

ثروة المجتمع هذه يتم اكتشافها مبكراً.. منذ الطفولة، ويتم العمل على رعايتها، وتنمية مهاراتها، وتوفير الحضانة الخاصة لمواهبها وقدراتها.. حتى تكون روافد حية للمجتمع، وعقله المستقبلي. وكل الدول صاحبة السيادة والشهود الحضاري تملك هذه الثروة ولا تفرط فيها وتحافظ عليها.

أما في بلادنا فالأمر على النقيض تماماً.. إننا لا نؤمن **ابتداء** بأهمية هذا الأمر.. أي لا نؤمن بأهمية "عقل" المجتمع والدولة، فنتحول في أحيان كثيرة إلى مجموعة من "المهابيل" التي تدمر نفسها، وتتآمر على نفسها، وتكون - في النهاية - جزءاً من خطة عدوها.

وثانياً: إن عدم حسم مسألة الهوية، جعل النخب وأصحاب العقول بلا هوية حقيقية، وأول وأهم ميزة في النخبة هي طبيعة الهوية التي تحملها، فإذا كانت صاحبة هوية علمانية أصبحت وبالاً على المجتمع المسلم، وإذا كانت صاحبة هوية مضطربة فستجعل المجتمع في حالة من الصراع والتناقض والتذبذب والازدواجية.

وثالثاً: إن النظرة التعصبية والحزبية، تقطع الطريق على وجود نخبة موضوعية محايدة، تعمل لصالح هوية المجتمع، وعموم الخير، والرقي، والتربية الحزبية والتعصبية التي تتلقها النخبة في بلادنا منذ نعومة أظفارها تجعلها تصاب بأعراض الشخصية الحزبية. فتتحول إلى نخب وظيفية تخدم الحزب أو الطائفة أو الجماعة.

ورابعاً: يأتي الانتحار الاجتماعي، وعدم شعور المجتمع برسالته وقيمته، ودوره في الحياة الإنسانية، وخلافة الأرض.. لتحبط عمل النخبة، وتجعل نظرة المجتمع إليهم نظرة عبثية.. مما يجعل هذه النخبة إما أن تنغلق على نفسها، أو تبيع نفسها، أو تهاجر لمن يقدر قيمتها.

وخامساً: تأتي الطبقية البغيضة المكونة للمجتمع، لتحول العلم والمعرفة إلى مجموعة من الشهادات والألقاب للتفاخر والاستعلاء والاستكثار، بلا أن تكون هناك قيمة اجتماعية وقيمية وأخلاقية حقيقية تحدد وجهة العلم الوجهة الصحيحة.

وسادساً: تأتي الظروف المادية القاسية، والظروف التي تجد النخبة نفسها فيها.. أن يتحول العلم و"عقل" المجتمع إلى تجارة، وخداع المجتمع، وتزيف وعيه باسم العلم والنخبة. وتصبح نخباً مزيفة عدوة للمجتمع قيمتها الوحيدة التي تتحرك على أساسها هي "المال والشهرة".

وسابعاً: عندما يتحكم في أضواء وأصداء النخبة، مجموعة من تجار الشهوات والمرابين، وزبل القوم.. الذين يملكون المال الحرام، ووسائل الإعلام التي تُعلي من شأن هذا وتحط من شأن هذا، وتجعل المجتمع يموج بكل أنواع التناقضات... فإن المجتمع يصل إلى حالة من الجنون الجماعي، وفقدان كل القيم الفطرية، وانهيار كل الموازين.

وثامناً: جهل المجتمع بالعلوم المنوط بها إخراجه من حالة الانتحار الاجتماعي وتخصصاتها الدقيقة المختلفة، يفتح الباب على مصراعيه أمام "الدراويش" ليتقلدوا هم زمام المجتمع.. والمجتمع الذي يقوده الدروايش لا شك مجتمع ضائع وفي ذيل الركب البشري، ذلك أن الدرويش يدعي العلم، وبمجرد مسحة دينية أو ثقافية تجعله يفتي في كل شيء، مما يُحدث كوارث على مستوى السلوك، ويصبح "عقل المجتمع" في حالة من الهياج العصبي والجوع والجنون نتيجة عدم تغذيته بالعلوم الصحيحة.

وتاسعاً: جعلت النظم التعليمية مجالات المجتمع والنفس والسياسة والواقع أو كما يسمونها "القسم الأدبي" للأقل تحصيلاً والأدنى درجات علمية أو للأغبياء ! فلا ينتظر المجتمع أي عملية إحياء أو تجديد طالما تقلده الأقل ذكاء، واستعداداً.. !! فتموت روافد المجتمع في مهدها.

وعاشراً: إن علوم إدراك الواقع والعلوم المرتبطة بالمجتمع والإنسان، تحتاج إلى نقلة هائلة بعيدة.. تقوم على أمرين: الأول/ تحصيل كل ما وصل إليه العقل البشري في هذا المجال من مصادره الأصلية، وليس من الكذبة الذين يدعون العلم ويترجمون هذه الكتب ترجمة ركيكة ويضعون بلا حياء أسمائهم عليها ! والثاني/ تنقية هذا العلوم من فلسفتها الغربية نحو النشأة

والمصير، وتصوراتها نحو الله والكون والإنسان والحياة.. والعمل على تأصيلها تأصيلاً إسلامياً حقيقياً، ليكون هو العلم النافع الصحيح.

إن التحرر من (وهم) النخب المزيفة، واستبداله (بحقيقة) النخب الحقيقية لهو خطوة رئيسة نحو طريق التمكين.

* * *

(7) المخلص المنتظر

كل مجتمع يتعرض لعمليات مستمرة من الظلم والفساد والقهر والاستبداد، ثم يعجز عن مواجهة ذلك والتحرر منه، فإن يتجه إلى عملية الدفاع الذاتي عن وجوده باختلاق "المخلص المنتظر" وهو نفس سلوك النفس الهروبي والتبريري ! فغالباً وسائل الهروب والتبرير النفسية.. يستخدمها المجتمع ! فيمكن اعتبار المجتمع "نفس ضخمة" وكلما تعرضت للتناقض والقهر والاستبداد ترهلت وتفككت وضاعت، وكلما كانت أكثر تماسكاً ووضوحاً للهوية، ودفاعاً عن الظلم والقهر والفساد كلما كانت أكثر قوة وتماسكاً وشهوداً حضارياً. ومراجعة سريعة للأحاديث النبوية الواردة في هذا الجانب عن "الجسد الواحد" توضح ذلك.

يظهر "المخلص المنتظر" في كل مجتمع مقهور وعاجز بغض النظر عن الدين الذي ينتمي إليه، لأنه رد فعل هروبي وتبريري.

ويرتبط بالمخلص، انتظار حدوث معجزة تنزل من السماء، أو خارقة كونية، أو مخالفة للسنن التي تحكم عالم الشهادة، ويرتبط بالمخلص كذلك ادعاء القوم أن لهم عند الله منزلة خاصة، ومحاباة ستهزم عدوهم، وتنزل عليهم البركات من السماء. وتظن أنه بمجرد الدعاء ستهبط عليهم المعجزات، وإذ لم تنزل جلدوا ذواتهم في صورة ليس فيها المراجعة والبحث عن الخلل، بل إنها نوعاً من اللطميات والبكائيات !!

هذا الانتظار أو بمعنى أدق الهروب، يرسخ للظلم والفساد، وموت المجتمع، وتفشي أمراض الموتى، بل وتغري رائحة الموت العدو المتربص أن يأتي ليجهز على كل شيء، ويحتل كل شيء..

إذ الانتظار حلقة مفرغة لا تنتهي، وتلغي مسؤولية الفرد والمجتمع، وتأخذه في إجازة مفتوحة حتى يأتي المخلص.

ويتلخص حل كل مشكلات المجتمع في بطل مغوار يحمل عصا سحرية لعلاج كل المشكلات، وليس مطلوب من المجتمع سوى التصفيق الحاد، والإنشاد له، وحمل صوره !

هذا التصور في لا وعي المجتمع من أخطر ما يقعده عن النهوض، ومعرفة أسبابه، وفقه سننه، ويجعل المجتمع في حالة من السلبية الشديدة.. ولا عجب إذ يظهر مثل المخلص الذي يريد أن ينهض بالمجتمع.. ولكن وفق السنن، فإذا المجتمع يلفظه، ويتنكر له ! لأنه ليس المخلص الذي في مخيلته.. المخلص الذي في مخيلة المجتمع شخصية لن تكلفه شيء ولن تطلب منه شيء.. ستحل مشكلاته بطريقة سحرية غامضة الأسباب!

هذا التصور المنحرف يقطع الطريق على كثير من جهود الإصلاح والتغيير، ويستنزف جهود المخلصين من أبناء الأمة، عندما يتعاطون مع أمة تنتظر الخوارق ومعجزة من السماء.. لأنها تظن أنها ذات ميزة خاصة عند الله!

هذا التصور عن المخلص المنتظر على النقيض تماماً من التصور الإسلامي، فإن التصور الإسلامي بعقيدته وسيرة نبيه ﷺ وخلفاءه تُعبر تعبيراً دقيقاً عن "الفكر السنني - القانوني" الذي يجب أن نسير فيه.. إن سنن الله لن تحابي أحداً ولو كان رسول الله ﷺ بل لقد خُير رسول الله ﷺ بين قدر الله الكوني، وقدره الشرعي.. حينما جاءه جبريل - عليه السلام - بعد تكذيب القوم له، فقال له: "إن شئت أطبق عليهم الأخشبين" أي: هلاكهم بقدر الله الكوني.. كن

فيكون، فاختار قدر الله الشرعي وسننه في النفوس والمجتمعات والكون.. ولما اختاره عليه الصلاة والسلام، لم تحابيه سنن الله، ولم ينتظر معجزة من السماء، بل كان أشد الناس ابتلاءً، وفي غزوة أحد بلغ درس "السنن" مداه وقُتل سبعين من الصحابة على رأسهم حمزة عم النبي عليه الصلاة والسلام، بل وأصيب النبي الكريم نفسه.. كل ذلك لأن "البعض" خالف أمره!

لذا فالتصور الإسلامي في التغيير يقوم على:

- تحقيق سنن الله سبحانه التي لن تحابي أحد، ولا تتغير، ولا تتبدل.
- وعلى استفراغ الوسع والطاقة.
- وعلى التوكل على الله وعدم العجز.
- وعلى عدم التمني على الله الأماني.. أي انتظار التمكين بلا جهاد وعمل.

وبذلك يُطلق التصور الإسلامي طاقات الجميع، ويرفع فاعلية الجميع لأقصى درجة، ويجعل المجتمع كله في حركة مستمرة للتصحيح والتغيير، ولا يقعد بالمجتمع بانتظار مخلص أو معجزة لن تأتي أبداً.

إن التحرر من وهم (المخلص المنتظر) واستبداله بحقيقة (سنن الله سبحانه) لهو خطوة رئيسة على طريق التمكين.

* * *

هذه أوهام سبعة كل وهم منها كجبل ضخم يعيق المجتمع والأمة عن الانطلاق نحو الوجهة الصحيحة، **وإننا لن نصل بكثرة التضحيات، بل بصحة المنهج والغاية والطريق.**

إن الإنسان شديد الالتصاق بذاته.. وعندما يفشل في عملية النقد الذاتي، ورؤية الذات.. والخروج منها.. يحدث له نوعاً من الإعاقة الإنسانية، فيصاب بأمراض نفسية شتى بدرجات مختلفة، بعضها قد يصل لهلاك الإنسان ذاته: منها تأليه نفسه، أو يتحول إلى فرعون وطاغوت، أو إلى عبد يمتطيه كل أحد.

تبدأ إنسانية الإنسان عندما يُفطم من الالتصاق بذاته، وتحرره منها.. واتساعه ليحتوي نفسه، ثم الآخرين، ثم الكون من حوله، وكلٌّ حسب طاقته.

هذا على مستوى الفرد.

على مستوى الجماعات - لا سيما التي تدعي أنها تحمل رسالة - عندما تكون ملتصقة بذاتها مستعلية على غيرها، منغلقة على نفسها، فتصبح بذلك وبالاً وعقبة على نفسها وعلى من يريد أن يحمل رسالة. وتصبح كالطفل المعاق ذهنياً وفكرياً وحركياً.. يستجديك كونه طفلاً، وكونه يحمل رسالة، ويُحيرك ويدمرك بإعاقته وفكره وحركته ! فتصبح في حالة من الغموض واللبس والحيرة تجاهه، تجذبك طفولته وتحنو عليه حيناً، وتلعنه وتلعن إعاقته وفكره حيناً آخر !!

لكن أياً كان موقفك منه، فلا سبيل إلا أن يحمل الرسالة:

[الحر - المكتمل الإنسانية - المتحرر من ذاته - القادر على الخروج منها - الباحث الناقد لذاته - القادر على الاحتواء والاستيعاب - القادر على الرؤية والتخطيط والتنفيذ - المتوازن الدقيق

الخطوات - المتحرر من الأوهام - الماضي في طريق سنن الله سبحانه] غير ذلك يُهلك نفسه، ومن معه، ومن يؤيده.. ويتعرض من البلاء ما لا يطيق.

إن التحرر من الأوهام، والوقوف على طريق الحقيقة بتصورها الإسلامي النقي.. بداية الطريق.

* * *